

عرض تاريخي

تطالعنا كتب علم النفس العام ، وبخاصة العربي منها ،
بقوائم من الغرائز باعتبارها الدوافع الأساسية للسلوك .

والفريزة على حسب تعريف هذه الكتب ، هي عبارة عن
استعداد فطري لا يحتاج إلى تعلم ، يدفع الكائن الحي إلى
القيام بسلوك خاص في موقف معين . ففراخ الدجاج مثلا في
استطاعتها أن تلتقط الحب بعد انقضاء ساعات قليلة على خروجها
من البيض (غريزة البحث عن الطعام) . والطفل عقب
ولادته ، يصرخ إذا ما سمع صوتا عاليا مدويا (غريزة الخوف) ،
وهكذا .

ومن بين هذه القوائم ما عرضه (وليم جيمس ⁽¹⁾) في
أواخر القرن التاسع عشر ، حيث ذكر أن هناك عند الإنسان
ما يقرب من ٣٢ غريزة ، منها : —

الصيد — الصراخ — الخوف — التقليد — اللعب
التسلق — الخجل — الفيرة — الطاعة — النظام

(1) James , W. : The principles of psychology
Vol. II., pp. 404 - 41 (1905) .

التنافس — الشفقة — إدارة الرأس جانباً — الابتسام
الحب — النظافة

ونجانب هذه القائمة قائمة أخرى ذكرها (ثورن ديك)^(١)

في عام ١٩١٣، حيث وضع للإنسان ما يقرب من ٤٢ غريزة .
ومن بين هذه الغرائز ما يأتي :

الأكل — القنص على الأشياء — البلع — الجمع
المقاتلة — الغضب — الضحك — السكاء — الرضاة
العض — البصق — التثاؤب — السعال — العطس
الإفراز — القيء

ويأتي بعد ذلك (مكدوجل)^(٢) وهو زعيم المدرسة
التقليدية في الغرائز ، حيث ذكر في أحد مؤلفاته ، أن لدى
الكائن الحي ١٤ غريزة يصحب استشارة كل منها إنفعال
خاص وهي^(٣) :

غريزة المقاتلة	—	إنفعالها الغضب
الغريزة الوالدية	—	» الحنو

(1) Thorndike, E. L. : Educational Psychology
Vol. II. New York, 1913.

(2) Mc Dougall, .W : An Outline of Psychology.
p. 324. (1923)

(٣) اقتبسنا هذه القائمة من كتاب «محاضرات في علم النفس» للدكتور
العزير القوصي . ص ١٢١ — ١٢٢ .

غريزة الهرب	—	انفعالها	الخوف
غريزة حب الاستطلاع	—	»	التعجب
غريزة البحث عن الطعام	—	»	الجوع
غريزة النفور	—	»	الاشمئزاز
غريزة الاستغاثة	—	»	الشعور بالضعف
الغريزة الجنسية	—	»	الشهوة الجنسية
غريزة الخنوع	—	»	الشعور بالتقص
غريزة السيطرة	—	»	الزهو
غريزة التملك	—	»	حب التملك
غريزة الحل والتركيب	—	»	حب العمل والنشاط
غريزة حب الاجتماع	—	»	الشعور بالوحدة
غريزة الضحك	—	»	التسلية

وقد أضاف (مكدوجل) إلى هذه القائمة، في كتاب حديث

له ، نشر في عام ١٩٣٣^(١) ، بعض الغرائز الأخرى وهي :

غريزة الراحة ، غريزة النوم ، غريزة الهجرة .

وقد لوحظ أنه بدأ في هذا الكتاب ، الذي كتبه في أواخر

أيامه ، يستعمل كلمة (Propensity) بدل كلمة غريزة (Instinct) .

ولعل ذلك التعديل بسبب كثرة النقد الذي وجهه علماء النفس ،

(1) Mc Dougall : The Energies of Men

وبخاصة الأمريكيون منهم ، إلى نظريته التفاهلية ، واقد اشتهد
نقد الأمريكيين لنظرية الفرائز ، معتبرين إياها صيغا بالية لا تكفي
لتفسير سلوك الإنسان .

وهناك اتجاه آخر ، وهو إرجاع جميع أفعال الإنسان إلى غريزة
واحدة . (فرويد)^(١) مثلا ، يرى أن الغريزة الجنسية هي
المصدر الأساسي لنشاط الكائن الحي . في حين أن (أدلر)^(٢)
يفسر جميع أفعال الإنسان بغريزة واحدة ، هي غريزة السيطرة
(Will to power).

ويتزعم (واطسن) رأيا آخر يفسر سلوك الإنسان بالفعل
المنعكس . أى على أساس فكرة المثير ورد الفعل ، مع إنكار
وجود حالة شعورية بينهما ، وذلك تفسير عصبي يجعل السلوك
متوقفا على تنبيه مختلف المراكز العصبية بمؤثرات خارجية ،
متجاهلين بذلك الأحوال النفسية التي تقع بين التأثير والاستجابة .
ولذلك سميت مدرسته « المدرسة السلوكية » .

ويقول أصحاب المذهب الديناميكي أن السلوك يحدث في
مجال معين ، هذا المجال يعتمد على مجموعة من العوامل ، بعضها
في الكائن الحي نفسه ، وبعضها يرجع إلى المواقف الخارجية^(٣)

(1) Freud : The Ego and the Id.

(2) Adler : Individual Psychology

(٣) انظر علم النفس التربوي للدكتور أحمد زكي صالح - ص ١١ .

أى أننا كى نقوم بسلوك ما ، لزم أن يكون وراء ذلك السلوك دافع يدفعنا لما نقوم به من نشاط وحركة . فالدافع هنا هو القوة الدافعية المحركة . وبجانب الدافع ، هنالك التكوين العضوى نفسه ، ويشمل ذلك ، الجهاز العصبى والأعضاء التى يتكون منها الجسم والحواس والغدد . . . الخ . وما تلك إلا وسائل استقبال وإرسال تتأثر بالبيئة الخارجية التى يعيش فيها الفرد والتى تحتوى على القوى والعناصر اللازمة لتحقيق الغرض الذى يكن وراء الدافع . وهنا يظهر بجلاء أثر البيئة فى إشباع حاجات الفرد المختلفة . — وعلى ذلك فإن ما يدفعنا إلى السلوك يرجع إلى أحد أمرين : وجود حالة نقص (احتياج) فى الجهاز العصبى تتطلب سدها ، أو حالة ضغط (pressure) داخلى تتطلب التنفيس عنها . مثال ذلك ، الجوع ، فهو حالة نقص تدفعنا إلى طلب الطعام ، وعلى العكس من ذلك ، حالة الغضب ، هى ضغط داخلى يدفعنا إلى أعمال معينة كالمقاتلة تنفيساً عنه . وما النقص أو الضغط ، كلاهما يخلق نوعاً من التوتر Tension وهو إما نفسى ، كما هو الحال فى الدوافع الثانوية السيكلوجية ، وإما توتر « فسيولوجى » مصحوب بعوامل نفسية ، مثل ما يحدث فى الدوافع الأولية كالجوع والميل الجنسى . ويتصل التوتر « الفسيولوجى » بالحساسية الحشوية (معدة — أمعاء — مثانة . . . الخ) ، أو الحساسية الغدية .

وينجم عن وجود ذلك التوتر ، تهيج أو إثارة . أو بعبارة أخرى حالة من حالات عدم الاستقرار الداخلي ، الذي يتطلب تنفيذا (discharge) . إن الرغبة في التنفيس تدفع الكائن الحي إلى النشاط والحركة ، ليزول ذلك النقص أو الضغط الذي سبب التوتر . وعند ما يزول النقص عن طريق إشباع الدافع ، تعود إلى الكائن الحي حالة الاستقرار أو التوازن التي كان عليها قبل تحقيق الهدف .

ويذهب (البورت Allport) (*) إلى أن الغرائز وحدها لا تكفي لتفسير السلوك الإنساني . فكثيرا ما يكتسب المرء ميولا نتيجة احتكاكه بالبيئة فتصبح في نفسها دوافع . والإنسان في كل دور من أدوار النمو يكتسب عدداً من الاتجاهات والميول والعادات نتيجة ما يقوم به من نشاط في بيئته . إن هذه التكوينات الجديدة ، يمكن أن تصير في نفسها قوى دافعة ، فعالم النبات أو عالم الجيولوجيا مثلا ، يكتسب كل منهما من عمله الخاص ، ما يدفعه للقيام بأنواع شتى من السلوك .

ولا يمنع ذلك أن تكون تلك التكوينات الجديدة مشتقة أحيانا من الحوافز النظرية . ويتضح ذلك من المثال الآتي :

(*) Allport : Personality. p, 191

هب أن شخصاً كان على ميعاد مع صديقة له ، وأنه كان في الوقت نفسه مكلفاً باستدكار مادة ما (علم النفس مثلاً) . ثم اشترط عليه أنه لن يخرج للقاء صديقه ، إلا بعد أداء ما عليه من واجبات . فإذا ما تفكر الموقف ، اصطفت دراسة علم النفس لديه ، بعامل يجلب إلى قلبه البهجة والسرور . وقد يحدث على مدى الزمن ، أن يتحول هذا السرور ، إلى ميل أو رغبة تتصل بعلم النفس ، تطغى على الدافع الأصلي الطبيعي . ثم بالتدريج يتفصل هذا الميل عن الدافع الأصلي ويصبح في نفسه دافعاً مستقلاً ، يؤثر في تفكير الفرد . ويكون كبير الأثر في توجيه سلوكه . وعلى ذلك نستطيع أن نلخص رأى (البورت) فيما يلي :

إن الانسان كما أنه يكتسب المهارات (الكتابة ، لعب التنس ، حلاقة الذقن . . الخ) عن طريق التعلم ، كذلك قد يكتسب دوافع لسلوكه عن طريق التعلم ، فما ينطبق على المهارات ، ينطبق بدوره على كثير من دوافع السلوك الإنساني^(١) .

ونخلص من عرضنا السابق إلى الأمور الآتية :

(١) إذا كان العلماء قد اختلفوا فيما بينهم على تحديد الغرائز ،

(1) Gordon W. Allport : Personality, A Symposium. The British Journal of Educational Psychology, June, 1946 p. 68.

فإنهم قد اتفقوا على أن هناك شيئاً فطرياً (innate) لا يحتاج للتعليم ، يفسر بعض السلوك الحيوى . أما ما هو هذا الشيء ، فقد اختلفوا في تعيينه ، فعند (فرويد) ينحصر في الغريزة الجنسية ، وعند (مكدوجل) ينحصر في تلك القائمة التي ذكرناها آنفاً ، وعند (ثورنديك) تبلغ الغرائز حوالى ٤٢ غريزة . إلى غير ذلك من التقسيمات العددية الأخرى .

(٢) وطالما كان من غير اليسير تحديد ما هو فطرى من سلوكنا ، وكانت هذه الصعوبة راجعة إلى طبيعة الإنسان نفسها ، فلا بد لنا أن ننظر دائماً إلى تأثير العوامل البيئية وإلى ما تتضمنه من بواعت .

وإننا إزاء هذا الاختلاف فى رأى على تحديد الغرائز ، حتى بين القائمين بوجودها ، ونظراً للتناقض الذى يتصل بالتسمية ، أو للغموض الذى لا يس تلك النظرية ، نفضل أن ننحو منحى آخر فى تفسير سلوكنا ، مسترشدين فى ذلك بتقدم البحوث التجريبية فى السنوات الأخيرة ، لا فى ميدان علم النفس فحسب ، بل فى علم وظائف الأعضاء ، وعلم الأجناس البشرية والاجتماع ، وعلم النفس المرضى والطب النفسى الجسمى .

ومن أهم الأسس التى يجب أن تراعى فى دراسة مشكلة الدوافع ما يأتى :

(١) فهم علم النفس على أساس ديناميكي (dynamic) ، يتجلى فيه التغير والتفاعل المستمر . إن هذا الفهم يجعلنا نهتم بالأسباب التي توجد وراء السلوك ، ولا نكتفي بالنواحي الوصفية .

إن علم النفس الديناميكي لا يحدد عدد الدوافع في الكائن الحي ، كما أنه ينظر إلى بعضها على أنها (وحدات تكوينية ملازمة) ، لها ارتباط بحياة الفرد الماضية ، ولكنها سرعان ما تنفصم عن الماضي فتصبح مستقلة . فهي في دور تكوينها تعتمد على خبرات الفرد وسيوله واتجاهاته ، وما يمر به من أحداث . وقد تكون في أول أمرها وليدة الصدفة ، ولكنها في ظل هذه الملابسات تنمو تدريجياً حتى تصبح أمراً فعالاً في توجيه السلوك . ويتضح هذا في طفل يشاهد أهله يعملون في حديقة المنزل ، وهم بين الحين والآخر يدعونه لمشاركتهم ، فإذا ساهم معهم في عمل من الأعمال شجعوه وامتدحوا عمله ، فتتمو في هذا الطفل بالتدرج رغبة في مواصلة ذلك العمل ، وقد يصل نمو تلك الرغبة إلى أن تصبح دافعا له أثره في تحديد ميوله واتجاهاته في المستقبل . فقد يتخذ من هذا العمل مهنة يكتسب منها ، أو يصبح على الأقل هواية ينفق فيها أوقات فراغه .

وهكذا نرى أن أمراً يكاد يتأتى عن طريق الصدفة ، يكتسب

أهمية خاصة في توجيه سلوك الفرد .

(٢) إن هذا التفسير يبد لنا عن تفسير السلوك على أساس قواهم ثابتة من الغرائز، ويفتح المجال أمام عدد من متغيرين الدوافع التي يكون لخبرات الفرد أثر كبير في تكوينها، وإن كان بعضها يقوم على أساس فطري، ثم يتخذ شكلا خاصا في ظل تلك الخبرات.

وأنا إذ نعدل في تفسير السلوك بالغرائز، لا ننكر وجود قوى دافعة يرشها المرء أو يكتسبها من البيئة، ولكننا نعتبر أن سلوكا ما، لا يتبع هذا الدافع أو ذلك—فطريا كان أم مكتسبا—ولكن يشبع الذات بأكملها. فالسلوك هو سلوك الذات بأكملها، وليست الذات (Ego) مجموعة من القوى النفسية المنفصلة، بل هي وحدة كاملة. مثال ذلك، إن اعتلجت بأنفسنا رغبة ما، فالرغبة ليست رغبة ذلك الجزء أو ذلك، بل هي رغبة الذات كلها. والسلوك الذي نندفع إليه، هو سلوك الذات كلها، بتركيبها الراهن، وغرضه إشباع الذات، بما فيها من ميول وعواطف ومطامح... الخ.

(٣) وهكذا تساعدنا هذه الدراسة على تفهم ميول الفرد واتجاهاته وعواطفه، وهذه أمور يكتسبها الفرد وتكون ذات أثر كبير في توجيه سلوكه.

(٤) كذلك الاهتمام بالفواحي اللاشعورية، له قيمته طالما

ندرس دوافع السلوك . وهذا مدعاة لدراسة العقل الباطن وما يحتويه من عقد نفسية . وفي ظل هذه الدراسة نستطيع أن ننقذ إلى أسباب بعض المظاهر النفسية المرضية ، كالمخاوف والأوهام والقلق والهستيريا ، والنيورستينيا ، والوساوس المتسلطة ، إلى غير ذلك من العلل والأسباب التي تؤدي جميعها إلى انحراف السلوك .

ولنا أن نتساءل الآن عن معنى الدافع ، وهذا ما سنجيب عليه في الفصل الثاني .
